مقدمـــــــة

من خلال غريزة حب الاستطلاع يسعى الإنسان إلى التعليم والترحال، والبحث والتنقيب، واتخمت ذاكراته بالكثير من التجارب البشرية، ولكن لم يستوعب أو يتعظ إلا القليل. يحاول الفلاسفة وعلماء النفس أن يتوصلوا إلى التنبؤ بالسلوك الإنسانى من أجل إدخال الجنس البشرى فى منظومة متناغمة للوصول إلى أكبر قدر من السعادة، وتوصل العلماء إلى الكثير من أبعاد النفس البشرية وإلى درجة ملموسة من مكنونها والعوامل التى تؤثر فى سلوكها، ولكن لم يتوصلوا إلى الدرجة ذاتها من الإقناع لتصديق الحكم والعظات المنتقاة من مخزون التجارب البشرية على مدى تاريخ الإنسان الطويل، فما زال الصراع قائما ، والحروب تندلع ، وما زال الإنسان يسعى إلى إيلام نفسه قبل تعذيب الآخر.

تحكى الأسطورة الإغريقية القديمة عن الأميرة كاسندرا Cassandra وتسمى أحيانا الكسندرا، والتى كانت ابنة ملك طروادة بريام، والملكة هيكوبا، وشقيقة هكتور وباريس. تقول الرواية إن أبولو وقع فى حب كاسندرا، فأنعم عليها بموهبة العلم والتنبؤ بالغيب وإقناع الآخرين بما تقول، وذلك فى مقابل وعد منها إن تبادله الحب وتستسلم له. فلما أخلفت كاسندرا وعدها غضب أبوللو وخطط للانتقام وتوسل إليها أن تمنحه قبلة واحدة، وأمام توسلاته منحته ما اشتهى. بعد أن انتهى أبوللو من تقبيل كاسندرا، نفخ فى فمها، فذهبت عنها قدرة الإقناع، مع بقاء موهبة التنبؤ بالمستقبل ولكن لا يصدقها أحد. حذرت كاسندرا الطرواديين من حيلة الحصان الخشبى أثناء حصار طروادة، ولكن قوبل تحذيرها بالتجاهل والصمت. وعندما استولى اليونانيون على مدينة طروادة كانت كاسندرا أسيرة من نصيب القائد أجا ممنون، فحذرته من أن زوجته سوف تقتله، فلم يصدقها. وفى النهاية تقوم زوجة أجا ممنون وعشيقها بقتل كاسندرا وأجا ممنون وأبنائهما.... فخلاصة الأسطورة أنه لا معنى للنبوءة دون أن يعى العقل أبعادها، ثم يصدق الإنسان عليها.

بدخولنا ميدان الأخلاق سيترائى لنا مضماران، وبالرغم من انفصالهما نظريا لكنهما فى الواقع سيتلاقيان فى نقاط تلاق كثيرة. يتمثل المضمار الأول فى العقائد الدينية بما فيه من مسارات ملزمة، أى أوامر ناهية بفعل هذا وترك ذلك، فالخير بين والشر بين وما بينهما بين. ونهاية هذا الطريق جلى ومعلوم، فمن التزم بالأوامر وبعد عن النواهى له جنات الآخرة، أما من ضل عن هذا الطريق فهو فاسد / فاسق، ومصيره الجحيم. إن لهذا المضمار خبراء ومتخصصين، وليس مجال الكتاب الخوض أو البحث فيه. أما المضمار الثانى فى ميدان الأخلاق فيسير فيه الفلاسفة وعلماء النفس والمفكرون ممن يبحثون فى القيم الأخلاقية الوضعية، ومعاييرها وأسلوب تطبيقها. يتبادر للمفكر بعض الأسئلة بعد أن رضى بوجوده، وارتاح من تعقيدات الغيبيات وسئم الخوض فيها. قد يكون السؤال الأول: ما الهدف من حياتنا...؟ ثم يعقبه سؤال آخر عن الوسيلة أو الطريقة التى يجب أن نحيا بها للوصول إلى هذا الهدف...؟

هل السعادة هدف...؟

ما تعريف السعادة، هل هى الرضا الداخلى أو تحقيق الذات، أم هى فى وجود المال أو استقرار الأسرة، أو فى العمل الذى يشبع ذاتنا، أم فى كسر ملل ورتابة طريقة الحياة،...، أم فى جميع ما سبق، أو قد يترائى لمختلف الأفراد فى حالة ما إذا توصلنا إلى الهدف، التساؤل: هل الغاية أهم... أم الوسيلة؟

وفى هذا المضمار الوضعى غير الإلزامى، أى الذى يضع ويحدد فيه الإنسان القيم وأولوياتها، وأوزانها النسبية، تكون للحرية الفردية والجماعية الكلمة الأولى، إلا إذا وجد الفرد الديكتاتور، أو جماعة لها القوة لفرض القيم وترتيب أوضاعها. ستجرنا الوسيلة إلى النسبية الناجمة من اختلاف الشخصية التى تكونت من التجارب الفريدة التى لا يتلاقى فيها فردان. هل الخير فى الديمقراطية؟ وإذا

كان الجواب نعم، فأين وضع الأقلية؟ هل الكرم خير؟ وإذا كان ذلك فمن أولى بكرمنا، هل الأهل أم الأكثر احتياجا؟ هل الخير فى المحبة؟ ولكن كيف نكون عادلين فى محبتنا؟ وكيف نصل إلى المحبة المجردة من الميل والهوى؟ مسالك ليس لها نهاية فى هذا المضمار، ولكن حتم على البشر الخوض فى دروبها إذا أرادوا أن ينتموا إلى العنصر الإنسانى، ويضعوا أنفسهم كأعضاء فى المنظومة البشرية. يشدنا الأصل الواحد للمسالك والسلوك، إلى دوافع السلوك الإنسانى، والخوض فى علم النفس، وبالتالى فى تعريف الشخصية، وأنواعها وطبيعة كل منها، والدوافع، والعواطف، إلى آخره من عناصر الجهاز النفسى.

يذهب البعض إلى أن بعض القيم موجود – بالغريزة – فى جميع البشر، وإذا كانت هذه القيم تتفاوت فى البداية، فبالتجربة وتكرارها، وبالتفكير والمنطق، ثم النقد والتعديل، يمكن الوصول إلى معيار مشترك، إن لم يكن مقبولاً من الجميع، فعلى الأقل من الأغلبية، لتصبح هذه القيم ومعاييرها وطرق تطبيقها، ثقافة عامة فى المجتمع. قد تتغير القيم أو تتبدل أولوياتها مع امتداد الزمن، فالحرية الجنسية أصبحت مقبولة فى العهد الحديث فى الحضارة الغربية بعد أن استخدموا فى الماضى حزام العفة. أيضا قد يفرض المكان قيما معينة، لا تعنى شيئا فى موضع آخر. فالسلوك والقيم والعادات أى الثقافة بصفة عامة، تختلف فى المجتمعات البدوية عن المجتمعات الحضرية، أو الريفية، فإذا كان كبير العائلة أو القبيلة له المكانة الأولى فى المجتمعات الريفية أو البدوية، فلا يعنى هذا اللقب شيئا فى مجتمع المدن الكبرى. إن القيم الموضوعة، والمبادئ الأخلاقية هما اللذان يحددان – إلى حد بعيد – سلوك البشر، لذا يختلف السلوك باختلاف الثقافة حتى وإن كان أصحاب السلوك ينتمون إلى نفس الشريحة فى تصنيف الشخصية.

عرف الدكتور أحمد عكاشة " النفس " فى الجملة المختصرة التالية: " (هى

مجموعة الوظائف العليا للدماغ أو الجهاز العصبى المركزى، ونعنى بها الوجدان والتفكير والسلوك). فالنفس البشرية كائنة فى منظومة مادية فسيولوجية Physiological تتمثل فى الجهاز العصبى الذى يسرى فيه تيارات كهربية، ومواد كيميائية مختلفة، وأى تلف أو خلل فى التركيب الكيميائى أو فى شدة التيار يؤدى إلى اضطراب فى وظيفة الخلية العصبية، فتحدث الاضطرابات النفسية والعقلية. فقد يعانى مرضى الاكتئاب النفسى من نقص فى بعض الهرمونات العصبية فى بعض مراكز الاتصال فى الدماغ، ويمكن علاجه باستعادة النسب الطبيعية فى الجسم، كما أن اضطرابات الشخصية لها علاقة بشذوذ الموجات الكهربية فى المخ والصبغات الموجودة فى الخلية. إن أعضاء الجسم المختلفة تعمل من خلال تفاعلات كيميائية، وشحنات كهربية تنتقل بسرعة فائقة فى ألياف الأعصاب Axons لتنقل الرسائل بين المخ وأعضاء الجسم، فيظهر السلوك الحركى المكمل للنشاط الذهنى.

يقوم علم النفس الفسيولوجى Psysiology بدراسة العلاقة بين الجهاز العصبى أى وظائف الأعضاء المتنوعة، وبين السلوك. يتشكل الجسم البشرى من منظومتين رئيسيتين، أولهما تتكون من الجهاز الهضمى والجهاز التنفسى والدورة الدموية، أما المنظومة الثانية فتتشكل من أعضاء الاستقبال الحسى، والمعدلات العصبية المركزية (الدماغ) وأخيرا أعضاء الاستجابة الحركية، وتعمل جميع أجهزة الجسم بواسطة الطاقة المستمدة من الطعام.

مثل الفكر الذى يخلق من الذهن من خلال المخ المادى، فإن السلوك الإنسانى يعمل Energized من خلال نشاط الجهاز العصبى، ويتفاعل الاثنان ويؤثر كل منهما على الآخر، ليشكلا الإنسان كذات، وكعلاقات مع الآخرين. إن سلوك الآخر بالنسبة لى هو مُدرك، تستوعبه أجهزة الإدراك، ويُخزن ويُحلل فى

المخ، ويتحول إلى مثير ومنبه Stimulus بالنسبة لى، ليبدأ بزوغ السلوك الرد فعلى أو الفكرة الجديدة، أو الاثنان معا. يفسر بعض علماء النفس السلوك على أسس فسيولوجية أى علم وظائف أعضاء الجسم، وسيكولوجية Psychology أى علم النفس، ثم توسع مفهوم السلوك وارتباطه بعناصر أخرى، ليبدأ التزاحم من علوم أخرى عديدة للدخول فى هذا المجال، مثل: علم الأحياء Biology، وعلم الأنثروبولوجيا Anthropology أى علم الإنسان والذى يبحث عن أصل الجنس البشرى وتطوره وأعراقه وعاداته ومعتقداته، وعلم الاجتماع Sociology، والأيكولوجى Ecology أى دراسة العلاقات بين الكائنات الحية وبيئتها، وخلافه من العلوم الأخرى مثل الكيمياء والفيزياء، نظرا للمتغيرات الكيميائية والكهربية المستمرة الحدوث فى الجهاز العصبى للإنسان.

يحتوى الكون على أنواع كثيرة من الإشعاعات غير المعلوم كونها، والطاقات الخفية ذات المصدر اللامحدود من القوة، وهى منتشرة ومتغلغلة فى كل مكان حتى فى أجسامنا من الداخل. قد يوجد ارتباط بين هذه الإشعاعات والطاقات وبين الدورة المزاجية، ودورة النشاط والحيوية للكائن البشرى، فقد يشعر الإنسان بنشوة أو اكتئاب دون سبب واضح، أو قد يشعر أحيانا بالكسل والخمول، أو بالحيوية فى أوقات أخرى. وحديثا اكتشف علماء الفلك وجود قوة غامضة تسمى بالطاقة المعتمة، تنتشر فى الكون وتدفعه للتمدد إلى ما لانهاية، وتشكل هذه الطاقة نسبة كبيرة من مكونات الكون. قد يتوصل الإنسان فى المستقبل إلى مكنون هذه الطاقات التى قد يكون لها تأثير فى انفعالات الإنسان وتسيير سلوكه.

وأخيرا.... نحن نكد ونجتهد، ونبحث ونكتشف، ونفتح أبوابا كانت مغلقة، فنجد وراءها سراديب مظلمة يحاول آخرون بعدنا أن يبعثوا فيها النور، فيجدوا أبوابا أخرى مغلقة، وهكذا دواليك... حتى يأذن الله بنهاية هذه المنظومة.

obeikandl.com